– «لَا يَا عَزِيزَتِي. إِنَّ الظَّلَامَ يُلَازِمُنِي دَائِمًا الْآنَ. سَوَاءٌ فِي الثَّلْجِ أَوْ فِي الشَّمْسِ، لَا يُمْكِنُ لِلضَّوْءِ مُسَاعَدَتِي.»

لَمْ تَكُنْ هايدي لِتَسْتَسْلِمَ، حَيْثُ قَالَتْ: «وَلَكِنْ فِي الصَّيْفِ يَا جَدَّتِي، عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ السَّاخِنَةُ سَاطِعَةً سَتَكُونُ الدُّنْيَا مُشْرِقَةً وَجَمِيلَةً أَمَامَكِ مُجَدَّدًا.»

– «أُوه، يَا طِفْلَتِي، لَنْ أَرَى أَشِعَّةَ الشَّمْسِ تَلْمَعُ فَوْقَ الْجِبَالِ وَلَا الزُّهُورَ الصَّفْرَاءَ أَبَدًا.»

عَلَى وَقْعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، انْفَجَرَتْ هايدي فِي بُكَاءٍ عَالٍ. وَفِي حُزْنِهَا ظَلَّتْ تَقُولُ: «لِمَاذَا لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُضِيءَ الظَّلَامَ مِنْ أَجْلِكِ مُجَدَّدًا؟ لِمَاذَا لَا يُمْكِنُكِ الرُّؤْيَةُ؟»

حَاوَلَتِ الْجَدَّةُ أَنْ تُهَدِّئَ مِنْ رَوْعِ الْفَتَاةِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ إِسْكَاتُهَا. لَمْ تَكُنْ هايدي كَثِيرَةَ الْبُكَاءِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَبْكِي، كَانَ يَصْعُبُ عَلَيْهَا الْخُرُوجُ مِنْ حَالَةِ الْحُزْنِ الَّتِي انْتَابَتْهَا لِوَقْتٍ طَوِيلٍ.

وَأَخِيرًا قَالَتِ الْجَدَّةُ: «تَعَالَيْ إِلَى هُنَا يَا هايدي الْحَبِيبَةُ. أَخْبِرِينِي كَيْفَ حَالُ جَدِّكِ. أَخْبِرِينِي مَاذَا تَفْعَلِينَ هُنَاكَ فِي الْأَعْلَى. لَقَدْ عَرَفْتُهُ جَيِّدًا فِي الْأَيَّامِ الْخَوَالِي، وَلَكِنْ لَمْ أَسْمَعْ عَنْهُ شَيْئًا لِأَعْوَامٍ الْآنَ. كُلُّ مَا أَعْرِفُهُ أَسْمَعُهُ مِنْ بيتر الَّذِي لَا يُخْبِرُنِي بِالْكَثِيرِ أَبَدًا.»

جَلَبَ هَذَا فِكْرَةً جَدِيدَةً وَسَعِيدَةً لِهايدي، فَجَفَّفَتْ دُمُوعَهَا سَرِيعًا وَقَالَتْ: «انْتَظِرِي حَتَّى أُخْبِرَ جَدِّي بِكُلِّ شَيْءٍ. سَيُضِيءُ لَكِ الظَّلَامَ مَرَّةً أُخْرَى. أَنَا مُتَأَكِّدَةٌ. وَسَيُصْلِحُ لَكِ مَنْزِلَكِ أَيْضًا. سَيُصْلِحُ كُلَّ شَيْءٍ.»

كَانَتِ الْجَدَّةُ صَامِتَةً. بَدَأَتْ هايدي فِي سَرْدِ حَيَاتِهَا الْمَرِحَةِ مَعَ الْجَدِّ وَالْأَيَّامِ الَّتِي قَضَتْهَا عَلَى الْجَبَلِ مَعَ الْمَعْزِ. وَأَخْبَرَتِ الْجَدَّةَ عَنِ الرِّعَايَةِ الْمُمْتَازَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا لَهَا الْجَدُّ وَعَنْ كُلِّ الْأَشْغَالِ الْخَشَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا حَوْلَ الْمَنْزِلِ.

اسْتَمَعَتِ الْجَدَّةُ بِاهْتِمَامٍ. بَدَتْ هِيَ وَابْنَتُهَا مُنْدَهِشَتَيْنِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الرَّائِعَةِ الَّتِي كَانَتْ هايدي تَقُولُهَا عَنِ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ. تَحَدَّثَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ حَتَّى انْفَتَحَ الْبَابُ فَجْأَةً.

هَتَفَتْ عِنْدَمَا رَأَتِ الصَّبِيَّ: «بيتر!»

كَانَتِ ابْتِسَامَةُ بيتر عَرِيضَةً، تَمَامًا مِثْلَ ابْتِسَامَةِ الْفَتَاةِ. ضَحِكَ وَهِيَ تَتَقَافَزُ حَوْلَهُ فِي مَرَحٍ.

قَالَتِ الْجَدَّةُ بِسُرْعَةٍ: «بيتر، كَيْفَ حَالُ الْقِرَاءَةِ مَعَكَ؟»

أَجَابَهَا بيتر: «كَمَا هِيَ.»

أَخْبَرَتِ الْجَدَّةُ هايدي قَائِلَةً: «كُنْتُ آمُلُ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْقِرَاءَةِ الْآنَ. يُوجَدُ كِتَابُ تَرَانِيمَ قَدِيمٌ عَلَى الرَّفِّ، وَفِيهِ أَنَاشِيدُ جَمِيلَةٌ لَمْ أَسْمَعْهَا مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ. لَا أَسْتَطِيعُ تَذَكُّرَهَا لِأُعِيدَهَا عَلَى نَفْسِي. كُنْتُ آمُلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ بيتر قَرِيبًا مَا يَكْفِي لِيَقْرَأَ عَلَى مَسَامِعِي وَاحِدَةً مِنْهَا.»

أَرْدَفَتِ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ: «وَلَكِنِ انْتَظِرِي، كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَعُودِي إِلَى الْمَنْزِلِ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ؟ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ فَتْرَةَ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ لَمْ تَنْقَضِ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ!»

قَالَتْ هايدي بِحُزْنٍ: «وَلَكِنَّهَا انْقَضَتْ بِالْفِعْلِ. وَبَدَأَ الظَّلَامُ يَحِلُّ. لَقَدْ وَعَدْتُ جَدِّي أَنْ أَشْرَعَ فِي الْعَوْدَةِ عِنْدَ أُولَى عَلَامَاتِ اللَّيْلِ. يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ!»

ابْتَسَمَتْ هايدي لِبيتر وَالْتَقَطَتْ مِعْطَفَهَا. أَثَارَتِ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ جَلَبَةً حَوْلَ خُرُوجِ الطِّفْلَةِ فِي الْهَوَاءِ شَدِيدِ الْبُرُودَةِ. وَأَخِيرًا أَرْسَلَتْ بيتر مَعَهَا لِيَتَأَكَّدَ مِنْ وُصُولِهَا لِأَعْلَى الْجَبَلِ. وَلَمْ يَذْهَبَا بَعِيدًا حَتَّى قَابَلَهُمَا الْجَدُّ عَلَى الطَّرِيقِ.

بَدَأَتْ هايدي فَوْرًا فِي إِخْبَارِهِ عَنْ زِيَارَةِ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ، قَائِلَةً: «جَدِّي، غَدًا يَجِبُ أَنْ نَأْخُذَ الْمِطْرَقَةَ وَالْمَسَامِيرَ الطَّوِيلَةَ. يَجِبُ أَنْ نُثَبِّتَ مِصْرَاعَ نَافِذَةِ جَدَّتِي وَنَقُومَ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى. مَنْزِلُهَا مَلِيءٌ بِالصُّدُوعِ وَيُصْدِرُ أَصْوَاتَ صَرِيرٍ.»

سَأَلَهَا جَدُّهَا: «يَجِبُ عَلَيْنَا؟! مَنْ قَالَ لَكِ ذَلِك؟»

قَالَتْ هايدي: «لَمْ يَقُلْ لِي أَحَدٌ. وَلَكِنْ جَدَّتِي تَبْقَى مُسْتَيْقِظَةً فِي اللَّيْلِ وَتَرْتَجِفُ مِنَ الْخَوْفِ أَنْ يَنْهَارَ الْمَنْزِلُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ. كُلُّ شَيْءٍ أَصْبَحَ مُظْلِمًا الْآنَ بِالنِّسْبَةِ لِجَدَّتِي وَتَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُضِيئَهُ لَهَا مُجَدَّدًا. وَلَكِنَّنِي مُتَأَكِّدَةٌ أَنَّكَ سَتَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ يَا جَدِّي. فَكِّرْ كَمْ هُوَ مُرْعِبٌ بِالنِّسْبَةِ لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي الظَّلَامِ دَائِمًا وَأَنْ تَكُونَ خَائِفَةً مِمَّا قَدْ يَحْدُثُ. لَا يُوجَدُ أَحَدٌ آخَرُ لِمُسَاعَدَتِهَا. غَدًا يَجِبُ أَنْ نَذْهَبَ وَنُصْلِحَ لَهَا كُلَّ شَيْءٍ. سَنَفْعَلُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا جَدِّي؟»

كَانَتِ الطِّفْلَةُ مُتَشَبِّثَةً بِالرَّجُلِ الْعَجُوزِ وَتَنْظُرُ لَهُ بِثِقَةٍ شَدِيدَةٍ. نَظَرَ لهايدي لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ دُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ ثُمَّ قَالَ: «نَعَمْ يَا هايدي، سَنَفْعَلُ شَيْئًا لِإِيقَافِ الْخَشْخَشَةِ. عَلَى الْأَقَلِّ يُمْكِنُنَا فِعْلُ ذَلِك. سَنَذْهَبُ غَدًا.»

وَفَى الْجَدُّ بِوَعْدِهِ، فَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَ يَذْهَبُ وَيُصْلِحُ شَيْئًا جَدِيدًا. وَهَكَذَا مَضَى الشِّتَاءُ. وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْكَئِيبَةِ، أَصْبَحَ يُوجَدُ شَيْءٌ فِي النِّهَايَةِ يَجْعَلُ الْجَدَّةَ تَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ. لَمْ تَعُدْ أَيَّامُهَا كَمَا كَانَتْ مَلِيئَةً بِالضَّجَرِ وَالظَّلَامِ، فَقَدْ أَصْبَحَتِ الْآنَ تَتَطَلَّعُ إِلَى زِيَارَاتِ هايدي.

الفصل السادس

زَائِرَانِ

إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ قَدْ مَرَّ سَرِيعًا، فَإِنَّ الصَّيْفَ قَدْ مَرَّ أَسْرَعَ. وَالْآنَ شِتَاءٌ آخَرُ كَانَ فِي طَرِيقِهِ لِلِانْقِضَاءِ. وَلَا تَزَالُ هايدي سَعِيدَةً كَمَا كَانَتْ يَوْمَ وُصُولِهَا. هِيَ الْآنَ فِي الثَّامِنَةِ مِنْ عُمْرِهَا. تَعَلَّمَتِ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُفِيدَةِ مِنْ جَدِّهَا، فَأَصْبَحَتْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَعْتَنِي بِالْمَعْزِ جَيِّدًا مِثْلُهَا مِثْلُ أَيِّ شَخْصٍ، وَلَكِنَّ الْأَطْفَالَ فِي سِنِّهَا مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونُوا فِي الْمَدْرَسَةِ. كَانَ نَاظِرُ الْمَدْرَسَةِ مِنْ بَلْدَةِ دورفلي قَدْ كَتَبَ بِالْفِعْلِ لِجَدِّهَا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ مَرَّتَيْنِ. وَأَرْسَلَ الْعَجُوزُ رَدًّا فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُفِيدُ بِأَنَّهُ لَنْ يُلْحِقَ هايدي بِالْمَدْرَسَةِ. وَفِي النِّهَايَةِ صَعِدَ الْقَسُّ الْجَبَلَ لِيَتَحَدَّثَ مَعَ الْجَدِّ عَنِ اخْتِيَارِهِ.

قَالَ الْقَسُّ: «كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الطِّفْلَةُ فِي الْمَدْرَسَةِ مُنْذُ عَامٍ مَضَى. إِنَّهَا لَيْسَتْ شَاةً وَلَا عُصْفُورَةً، إِنَّهَا طِفْلَةٌ. لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِكَيْ تَبْدَأَ دُرُوسَهَا. يَجِبُ أَنْ تَذْهَبَ الشِّتَاءَ الْقَادِمَ.»

زَمْجَرَ جَدُّ هايدي: «حَقًّا! هَلْ تُرِيدُ فِعْلًا أَنْ أُرْسِلَ طِفْلَةً صَغِيرَةً كَهَذِهِ لِأَمْيَالٍ أَسْفَلَ الْجَبَلِ وَسْطَ الْعَوَاصِفِ وَالثُّلُوجِ؟ هَلْ يَنْبَغِي أَنْ أَتْرُكَهَا تَعُودُ فِي اللَّيْلِ فِي الرِّيَاحِ الْعَاصِفَةِ؟ حَتَّى أَنَا يُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ مُعَرَّضًا لِخَطَرِ أَنْ تَعْصِفَ بِيَ الرِّيحُ وَأُدْفَنَ فِي الثَّلْجِ!»

قَالَ الْقَسُّ بِلَهْجَةٍ وُدِّيَّةٍ: «أَنْتَ مُحِقٌّ فِعْلًا يَا جَارِي. أَتَّفِقُ مَعَكَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مُسْتَحِيلًا إِرْسَالُهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ مِنْ هُنَا. وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تُفَكِّرَ فِي الطِّفْلَةِ. لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِكَيْ تَنْزِلَ مِنْ عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ وَتَعِيشَ مَعَ غَيْرِكَ مِنَ النَّاسِ. إِنَّ الْعَيْشَ فِي الْأَعْلَى هُنَا خَطِيرٌ جِدًّا. لَنْ تَنْجُوَ هايدي إِذَا حَدَثَ لَكَ أَيُّ شَيْءٍ فِي شُهُورِ الشِّتَاءِ!»

– «دَعْنِي أُؤَكِّدْ لَكَ يَا سَيِّدِي أَنِّي أَعْتَنِي بِالطِّفْلَةِ جَيِّدًا. إِنَّهَا تَبْقَى دَافِئَةً هُنَا. مِدْفَأَتِي لَا تَنْطَفِئُ أَبَدًا. أَمَّا عَنْ ذَهَابِي لِلْعَيْشِ فِي الْبَلْدَةِ، فَالنَّاسُ هُنَاكَ تَكْرَهُنِي، وَأَنَا أَكْرَهُهُمْ. مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ نَبْقَى بَعِيدًا بَعْضِنَا عَنِ الْبَعْضِ.»

اعْتَرَضَ الْقَسُّ قَائِلًا: «لَا، لَيْسَ هَذَا هُوَ الْخِيَارُ الْأَفْضَلُ أَمَامَكَ. النَّاسُ هُنَاكَ لَا يَكْرَهُونَكَ مِثْلَمَا تَعْتَقِدُ. أَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ تَتَصَالَحَ مَعَ اللهِ وَتَنْتَقِلَ لِلْعَيْشِ مَعَنَا فِي سَفْحِ الْجَبَلِ. سَتَرَى كَيْفَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَكُونَ سَعِيدًا.»

وَقَفَ الْقَسُّ وَرَفَعَ يَدَهُ قَائِلًا: «أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ سَتَتَّخِذُ الْقَرَارَ السَّلِيمَ. أَعْلَمُ أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ سَنَكُونُ جِيرَانًا مَرَّةً أُخْرَى. أَعْطِنِي يَدَكَ وَعِدْنِي بِذَلِكَ.»

أَعْطَى الْجَدُّ يَدَهُ لِلْقَسِّ وَأَجَابَ بِهُدُوءٍ: «أَعْلَمُ أَنَّكَ فَقَطْ تُفَكِّرُ فِي مَصْلَحَةِ الْبِنْتِ، وَلَكِنَّنِي أُخْبِرُكَ الْآنَ أَنَّنِي لَنْ أُرْسِلَهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَلَنْ أَنْتَقِلَ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ لِلْعَيْشِ وَسْطَ النَّاسِ.»

قَالَ الْقَسُّ: «إِذَنْ أَتَمَنَّى أَنْ يُسَاعِدَكَ الرَّبُّ!» وَاسْتَدَارَ بِحُزْنٍ وَتَرَكَ الْكُوخَ وَنَزَلَ إِلَى أَسْفَلِ الْجَبَلِ.

تَرَكَتْ زِيَارَةُ الْقَسِّ الْجَدَّ فِي مِزَاجٍ نَكِدٍ. وَعِنْدَمَا سَأَلَتْهُ هايدي عَنِ الذَّهَابِ لِزِيَارَةِ الْجَدَّةِ، قَالَ لَهَا: «لَيْسَ الْيَوْمَ.» ثُمَّ لَمْ يَتَحَدَّثْ لِبَقِيَّةِ الْيَوْمِ. فِي الصَّبَاحِ التَّالِي عِنْدَمَا سَأَلَتْ هايدي عَنِ الْجَدَّةِ مُجَدَّدًا، أَجَابَ: «سَنَرَى.» وَلَكِنْ حَتَّى قَبْلَ أَنْ يُزِيلُوا أَطْبَاقَ الْغَدَاءِ مِنْ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَصَلَ زَائِرٌ آخَرُ. هَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَتِ الْخَالَةَ ديتا.

نَظَرَ الْجَدُّ إِلَى مَلَابِسِهَا الْفَاخِرَةِ دُونَ أَنْ يَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ. يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْهَمَ مِنْ تَعْبِيرَاتِ وَجْهِهَا أَنَّهَا فُوجِئَتْ بِمَظْهَرِ هايدي الْجَيِّدِ. كَانَتْ سَعِيدَةً وَتَتَلَقَّى رِعَايَةً جَيِّدَةً حَتَّى إِنَّ ديتا بِالْكَادِ تَعَرَّفَتْ عَلَيْهَا. لَقَدْ كَانَ تَرْكُ الطِّفْلَةِ مَعَ جَدِّهَا دَائِمًا يُقْلِقُ ديتا إِلَى حَدٍّ مَا؛ لِذَا كَانَتْ سَعِيدَةً أَنْ تَأْتِيَ لِلرَّجُلِ الْعَجُوزِ بِأَخْبَارِهَا الرَّائِعَةِ.

كَانَ ثَمَّةَ قَرِيبٌ غَنِيٌّ لِلْعَائِلَةِ الَّتِي تَعْمَلُ عِنْدَهَا لَدَيْهِ طِفْلَةٌ وَحِيدَةٌ. كَانَتِ الْفَتَاةُ فِي سِنِّ هايدي تَقْرِيبًا وَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهَا اسْتِخْدَامُ كُرْسِيٍّ مُتَحَرِّكٍ لِلْحَرَكَةِ. وَكَانَتْ تَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهَا وَحِيدَةً وَتَحْتَاجُ إِلَى شَخْصٍ مَا لِيَلْعَبَ مَعَهَا. تَحَدَّثَتْ ديتا إِلَى مُدَبِّرَةِ الْمَنْزِلِ عَنْ هايدي، وَوَافَقَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى اسْتِضَافَةِ الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ. يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا رَائِعًا بِالنِّسْبَةِ لِهايدي! فَهِيَ سَتَعِيشُ فِي مَنْزِلٍ فَاخِرٍ وَسَيَكُونُ لَدَيْهَا دَائِمًا مَنْ تَلْعَبُ مَعَهُ.

قَالَتْ ديتا: «وَمَنْ يَعْلَمُ، إِذَا حَدَثَ أَيُّ شَيْءٍ لِلْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ، يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هايدي مَحْظُوظَةً و...»

سَأَلَ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ الزَّائِرَةَ: «هَلِ انْتَهَيْتِ مِمَّا جِئْتِ لِتَقُولِيهِ؟»

صَرَخَتْ ديتا وَلَوَّحَتْ بِيَدَيْهَا فِي الْهَوَاءِ: «أُفٍّ! أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ سَيَكُونُ سَعِيدًا بِالْأَخْبَارِ الَّتِي جَلَبْتُهَا لَكَ!»

– «إِذَنْ يُمْكِنُكِ أَخْذُ أَخْبَارِكِ لِأَيِّ شَخْصٍ آخَرَ. لَا أُرِيدُ سَمَاعَهَا.»

قَفَزَتْ ديتا مِنْ مَقْعَدِهَا كَالصَّارُوخِ قَائِلَةً: «إِذَا كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُمْكِنُكَ إِبْقَاءُ ابْنَةِ أُخْتِي هُنَا فِي الْأَعْلَى دُونَ إِرْسَالِهَا إِلَى الْكَنِيسَةِ أَوِ الْمَدْرَسَةِ، فَأَنْتَ مُخْطِئٌ! أَنَا مَسْئُولَةٌ عَنْهَا! وَلَنْ أَسْتَسْلِمَ!»

صَرَخَ الْجَدُّ: «تَوَقَّفِي! ارْحَلِي فَوْرًا وَلَا تَدَعِينِي أَرَى وَجْهَكِ هُنَا مُجَدَّدًا أَبَدًا!» وَمَعَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَرَكَ الْكُوخَ.

صَرَخَتْ هايدي: «لَقَدْ أَغْضَبْتِ جَدِّي!» وَنَظَرَتْ لِديتا بِغَضَبٍ.

قَالَتِ الْمَرْأَةُ: «سَيَكُونُ بِخَيْرٍ. تَعَالَي الْآنَ، أَرِينِي أَيْنَ مَلَابِسُكِ.»

قَالَتْ هايدي: «لَنْ أَذْهَبَ مَعَكِ.»

قَالَتْ ديتا فِي دَهْشَةٍ: «هُرَاءٌ! أَنْتِ لَا تَفْهَمِينَ أَيَّ شَيْءٍ مِثْلُكِ مِثْلُ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ. سَتَحْصُلِينَ عَلَى أَشْيَاءَ لَمْ تَحْلُمِي بِهَا قَطُّ.» ذَهَبَتْ إِلَى الْخِزَانَةِ وَأَخْرَجَتْ مُتَعَلِّقَاتِ هايدي. ثُمَّ لَفَّتْهَا فِي حُزْمَةٍ وَأَعْطَتِ الْفَتَاةَ قُبَّعَةً: «تَعَالَيْ مَعِيَ الْآنَ. هَذِهِ الْقُبَّعَةُ رَثَّةٌ، وَلَكِنَّهَا سَتُؤَدِّي الْغَرَضَ الْآنَ. فَلْنَذْهَبْ.»

كَرَّرَتْ هايدي: «لَنْ أَذْهَبَ مَعَكِ.»

أَجَابَتْ ديتا: «لَا تَكُونِي غَبِيَّةً. عَلَى الْأَغْلَبِ لَقَدْ تَعَلَّمْتِ أَنْ تَكُونِي عَنِيدَةً مِنْ تِلْكَ الْمَعْزِ. اسْتَمِعِي لِي. لَقَدْ رَأَيْتِ كَمْ كَانَ جَدُّكِ غَاضِبًا. إِنَّهُ لَا يَرْغَبُ فِي رُؤْيَتِنَا مُجَدَّدًا أَبَدًا. إِنَّهُ يُرِيدُكِ أَنْ تَرْحَلِي مَعِي. لَا يَنْبَغِي أَنْ تُغْضِبِيهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك. بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي سَآخُذُكِ إِلَيْهِ رَائِعٌ جِدًّا. وَإِذَا لَمْ تُحِبِّي الْمَكَانَ هُنَاكَ، فَسَأُعِيدُكِ إِلَى هُنَا. سَيَكُونُ جَدُّكِ فِي مِزَاجٍ جَيِّدٍ فِي ذَلِك الْوَقْتِ.»

سَأَلَتْ هايدي: «هَلْ يُمْكِنُنَا الذَّهَابُ وَالْعَوْدَةُ اللَّيْلَةَ؟»

سَأَلَتْ ديتا: «عَمَّ تَتَحَدَّثِينَ؟ لَقَدْ أَخْبَرْتُكِ أَنَّنِي سَأُعِيدُكِ عِنْدَمَا تُرِيدِينَ. سَنَسِيرُ بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ الْيَوْمَ. ثُمَّ نَسْتَقِلُّ الْقِطَارَ غَدًا. وَسَيُعِيدُكِ الْقِطَارُ مُجَدَّدًا عِنْدَمَا تُرِيدِينَ، بِسُرْعَةِ الرِّيَاحِ.»

كَانَتْ ديتا الْآنَ تَضَعُ صُرَّةَ مَلَابِسِ هايدي تَحْتَ ذِرَاعِهَا وَتُمْسِكُ الطِّفْلَةَ مِنْ يَدِهَا. وَسَارَتَا إِلَى أَسْفَلِ الْجَبَلِ مَعًا.

سَمِعَتْ هايدي صَوْتَ بيتر قَبْلَ أَنْ تَرَى الصَّبِيَّ. صَاحَ بِهَا: «إِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ؟» بَدَأَ يَقْلَقُ عِنْدَمَا رَأَى الطِّفْلَةَ تَتَشَبَّثُ بِيَدِ الْمَرْأَةِ.

– «أَنَا ذَاهِبَةٌ فِي زِيَارَةٍ إِلَى فرانكفورت فَقَطْ. وَسَأَعُودُ.» أَبْطَأَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ عِنْدَمَا رَأَتْ كُوخَ الْجَدَّةِ.

قَالَتْ هايدي وَهِيَ تَنْظُرُ لِأَعْلَى لِلْمَرْأَةِ الَّتِي بِجَانِبِهَا: «أُوه، يَجِبُ أَنْ أَرْكُضَ لِأُخْبِرَ الْجَدَّةَ. سَتَكُونُ فِي انْتِظَارِي.»

– «لَا، لَا يُمْكِنُكِ التَّوَقُّفُ مِنْ أَجْلِ أَحَدٍ. عِنْدَمَا تَعُودِينَ يُمْكِنُكِ أَنْ تُحْضِرِي لَهَا هَدِيَّةً.»

كَانَتْ هايدي مُمَزَّقَةً مَا بَيْنَ السَّيْرِ لِأَسْفَلِ الْجَبَلِ وَبَيْنَ الرَّكْضِ إِلَى الْكُوخِ. تَوَقَّفَتْ عِنْدَمَا سَمِعَتْ نِدَاءَ الْجَدَّةِ وَفَكَّرَتْ فِي زِيَارَتِهَا لِدَقِيقَةٍ فَقَطْ. وَلَكِنَّ ديتا جَذَبَتْ يَدَهَا بِقُوَّةٍ حَتَّى إِنَّ الِاخْتِيَارَ كَانَ قَدِ اتُّخِذَ لَهَا.

الفصل السابع

عَائِلَةٌ جَدِيدَةٌ

كَانَتْ كلارا سيسمان مُسْتَلْقِيَةً عَلَى الْأَرِيكَةِ. كَانَتْ سِيقَانُهَا ضَعِيفَةً وَمِنَ الصَّعْبِ جِدًّا عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ دُونَ مُسَاعَدَةٍ. كَانَتِ الْآنَ فِي غُرْفَةِ الْمَكْتَبِ، وَهِيَ الْغُرْفَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا الْعَائِلَةُ فِي الْمُعْتَادِ. كَانَ مِنَ السَّهْلِ مُلَاحَظَةُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْغُرْفَةُ الَّتِي تَتَلَقَّى فِيها كلارا دُرُوسَهَا أَيْضًا، حَيْثُ كَانَ ثَمَّةَ مَكْتَبَةٌ أَنِيقَةٌ ذَاتُ أَبْوَابٍ زُجَاجِيَّةٍ تَحْتَوِي عَلَى كُلِّ مَا قَدْ تَحْتَاجُهُ الْفَتَاةُ. وَمَعَ ذَلِك، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ، كَانَتْ تَتَمَنَّى بِبَسَاطَةٍ أَنْ تَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ، وَحِينَئِذٍ فَقَطْ سَمِعَتْ أَصْوَاتَ زُوَّارٍ عَلَى الْبَابِ.

كَانَ وَجْهُهَا الصَّغِيرُ رَفِيعًا وَشَاحِبًا. تَنَقَّلَتْ عَيْنَاهَا الزَّرْقَاوَانِ الْهَادِئَتَانِ مِنَ السَّاعَةِ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْغُرْفَةِ.

سَأَلَتْ كلارا بِهُدُوءٍ: «هَلْ هَؤُلَاءِ هُمْ يَا سَيِّدَةُ روتينماير؟» أَصْغَتْ لِلْأَصْوَاتِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْمَدْخَلِ الْأَمَامِيِّ.

كَانَتِ السَّيِّدَةُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا تَجْلِسُ بِهُدُوءٍ إِلَى مِنْضَدَةٍ صَغِيرَةٍ. كَانَتْ مُدَبِّرَةُ الْمَنْزِلِ مَسْئُولَةً عَنْ رِعَايَةِ الْفَتَاةِ مُنْذُ وَفَاةِ أُمِّهَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَكَانَتْ هِيَ الَّتِي تَحَدَّثَتْ ديتا مَعَهَا عَنْ هايدي.

كَانَتْ كلارا عَلَى وَشْكِ أَنْ تَطْرَحَ سُؤَالَهَا مُجَدَّدًا عِنْدَمَا وَصَلَتْ ديتا وَهايدي عِنْدَ بَابِ الْمَكْتَبِ.

نَظَرَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير إِلَى هايدي لِبِضْعِ دَقَائِقَ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا: «مَا اسْمُكِ؟»

قَالَتِ الصَّغِيرَةُ بِهُدُوءٍ: «هايدي.»

تَدَخَّلَتْ ديتا بِسُرْعَةٍ لِتَغْيِيرِ إِجَابَتِهَا. «اسْمُهَا التَّعْمِيدِيُّ هُوَ أديلهايد، مِثْلُ اسْمِ أُمِّهَا الْمُتَوَفَّاةِ.»

اقْتَرَبَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير خُطْوَةً مِنَ الطِّفْلَةِ وَقَالَتْ: «يَجِبُ أَنْ أُخْبِرَكِ يَا ديتا أَنَّنِي مُنْدَهِشَةٌ لِرُؤْيَةِ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ كَهَذِهِ. لَقَدْ أَخْبَرْتُكِ أَنِّي أُرِيدُ فَتَاةً فِي عُمْرِ كلارا. كلارا فِي الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ. فَكَمْ عُمْرُ أديلهايد؟»

أَجَابَتْ ديتا وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تُخْفِيَ الْحَقِيقَةَ: «لَقَدْ نَسِيتُ الْعَدَدَ. لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَقُولَ بِالضَّبْطِ، وَلَكِنْ أَظُنُّ أَنَّهَا فِي الْعَاشِرَةِ أَوْ مَا يَقْرُبُ ذَلِك.»

تَدَخَّلَتْ هايدي فِي النِّقَاشِ: «أَخْبَرَنِي جَدِّي أَنَّنِي فِي الثَّامِنَةِ.» لَكَزَتْهَا ديتا فِي ظَهْرِهَا بِإِصْبَعِهَا.

صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير: «مَاذَا؟! فِي الثَّامِنَةِ فَقَطْ؟ أَصْغَرُ بِأَرْبَعِ سَنَوَاتٍ! مَا الْفَائِدَةُ الَّتِي سَتَجْلِبُهَا؟ لَقَدْ أَرَدْنَا شَخْصًا يُشَارِكُ كلارا فِي الدُّرُوسِ وَالْقِرَاءَةِ! مَاذَا قَرَأْتِ يَا صَغِيرَةُ؟»

قَالَتْ هايدي: «لَا شَيْءَ.»

– «مَاذَا؟»

قَالَتْ هايدي: «لَمْ أَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ قَطُّ.»

صَاحَتِ السَّيِّدَةُ الْأَكْبَرُ سِنًّا: «الرَّحْمَةَ! لَا تَعْرِفِينَ الْقِرَاءَةَ! ديتا، كَيْفَ تَجْلِبِينَ لِي طِفْلَةً مِثْلَ هَذِهِ؟ لَمْ تُخْبِرِينِي كَيْفَ هِيَ!»

أَجَابَتْ ديتا بِهُدُوءٍ: «مِنْ فَضْلِكِ، إِنَّهَا فَتَاةٌ لَطِيفَةٌ، إِنَّهَا تُمَثِّلُ تَمَامًا نَوْعَ الْمُرَافِقِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعَ كلارا. يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ، وَلَكِنَّكِ سَتَرَيْنَ كَمْ سَتَنْسَجِمَانِ بِشِدَّةٍ.» خَرَجَتْ ديتا مِنَ الْغُرْفَةِ وَهِيَ تَنْحَنِي ثُمَّ رَكَضَتْ إِلَى الْأَسْفَلِ. وَقَفَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير لِلَحْظَةٍ لَا تَعْلَمُ مَاذَا تَفْعَلُ، ثُمَّ رَكَضَتْ عَلَى السُّلَّمِ خَلْفَ الْمَرْأَةِ. كَانَ لَدَيْهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَسْئِلَةِ حَوْلَ الطِّفْلَةِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتْرُكَهَا تَرْحَلُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

بَقِيَتْ هايدي بِجَانِبِ الْبَابِ. فَأَشَارَتْ لَهَا كلارا لِكَيْ تَأْتِيَ وَبَدَأَتَا فِي الْحَدِيثِ.

بَدَأَتْ كلارا مُتَسَائِلَةً: «هَلْ كَانَ لَدَيْكِ دَائِمًا هَذَا الشَّعْرُ الْقَصِيرُ الْمُجَعَّدُ؟»

قَالَتْ هايدي: «نَعَمْ، أَظُنُّ ذَلِك.»

اسْتَمَرَّتْ كلارا: «هَلْ أَنْتِ سَعِيدَةٌ بِالْقُدُومِ إِلَى هُنَا؟»

عَائِلَةٌ جَدِيدَةٌ

قَالَتْ هايدي: «لَا، وَلَكِنِّي سَأَذْهَبُ إِلَى الْمَنْزِلِ غَدًا. سَآخُذُ هَدِيَّةً لِلْجَدَّةِ. أَعْتَقِدُ أَنِّي سَآخُذُ لَهَا رَغِيفًا مِنَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ. تَقُولُ ديتا إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجَأَةً لَطِيفَةً لَهَا.»

ضَحِكَتْ كلارا: «أَنْتِ طِفْلَةٌ مُضْحِكَةٌ. لَقَدْ أُرسِلْتِ إِلَى هُنَا لِتَعِيشِي مَعِي وَتُشَارِكِينِي فِي دُرُوسِي، وَالْآنَ أَكْتَشِفُ أَنَّكِ لَا تَعْرِفِينَ حَتَّى الْقِرَاءَةَ. سَنَسْتَمْتِعُ بِذَلِك! مُعَلِّمِي شَخْصٌ لَطِيفٌ. سَيُحِبُّ تَعْلِيمَكِ أَيْضًا.»

هَزَّتْ هايدي رَأْسَهَا وَبَدَأَتْ فِي قَوْلِ شَيْءٍ مَا، وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ روتينماير عَادَتْ إِلَى الْغُرْفَةِ. لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنَ اللِّحَاقِ بِديتا، وَالنَّظْرَةُ الَّتِي عَلَى وَجْهِهَا أَخْبَرَتْ هايدي وَكلارا أَنَّهَا لَا تَزَالُ غَاضِبَةً مِنَ الْأَمْرِ.

قَالَتْ: «لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَشَاءِ.» أَخَذَ سيباستيان — كَبِيرُ الْخَدَمِ — الْفَتَاتَيْنِ إِلَى الطَّاوِلَةِ. وَأَثْنَاءَ تَنَاوُلِهِمَا الطَّعَامَ، جَهَّزَتْ تينيت — الْخَادِمَةُ — غُرْفَةَ الضُّيُوفِ مِنْ أَجْلِ هايدي.

وَصَلَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير إِلَى الطَّاوِلَةِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِتَسْمَعَ هايدي فِي مُحَادَثَةٍ بَسِيطَةٍ مَعَ سيباستيان.

– «أديلهايد، يَجِبُ أَنْ تَفْهَمِي أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ تَتَحَدَّثِي مَعَ الْخَدَمِ إِلَّا إِذَا كَانَ لَدَيْكِ أَمْرٌ لَهُمْ.» ثم أَمْسَكَتْ بِذَقْنِ الْفَتَاةِ وَأَدَارَتْهَا نَحْوَهَا بِقَسْوَةٍ مُضِيفَةً: «لَا تَجْعَلِينِي أَسْمَعُكِ تَتَحَدَّثِينَ إِلَى سيباستيان بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ مُجَدَّدًا أَبَدًا!»

بَيْنَمَا اسْتَمَرَّتِ السَّيِّدَةُ روتينماير فِي إِلْقَاءِ قَائِمَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَّبِعَهَا هايدي فِي الْمَنْزِلِ، بَدَأَتْ عَيْنَا الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ تَنْغَلِقُ بِبُطْءٍ. فَقَدْ كَانَتْ مُسْتَيْقِظَةً مُنْذُ الْخَامِسَةِ صَبَاحًا وَقَامَتْ بِرِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ طَوَالَ الْيَوْمِ. مَالَتْ لِلْخَلْفِ فِي مَقْعَدِهَا وَسُرْعَانَ مَا اسْتَغْرَقَتْ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

عِنْدَمَا وَصَلَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير أَخِيرًا إِلَى نِهَايَةِ خِطَابِهَا، قَالَتْ: «الْآنَ تَذَكَّرِي مَا قُلْتُهُ يَا أديلهايد! هَلْ فَهِمْتِ كُلَّ شَيْءٍ؟»

قَالَتْ كلارا بِابْتِسَامَةٍ وَاسِعَةٍ عَلَى وَجْهِهَا: «هايدي نَائِمَةٌ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ.» فَلَا تَذْكُرُ أَنَّهَا اسْتَمْتَعَتْ بِوَقْتٍ طَيِّبٍ عَلَى الْعَشَاءِ بِهَذَا الْقَدْرِ مِنْ قَبْلُ.

الفصل الثامن

جَوْلَةٌ فِي الْبَلْدَةِ

عِنْدَمَا فَتَحَتْ هايدي عَيْنَيْهَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ أَيْنَ هِيَ. وَعِنْدَمَا نَظَرَتْ حَوْلَهَا فِي الْغُرْفَةِ تَذَكَّرَتْ كُلَّ مَا حَدَثَ فِي الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ. فَقَفَزَتْ مِنْ عَلَى الْفِرَاشِ، وَارْتَدَتْ مَلَابِسَهَا وَرَكَضَتْ إِلَى النَّافِذَةِ. كَانَتْ هايدي مُتَشَوِّقَةً إِلَى رُؤْيَةِ السَّمَاءِ وَالْبَلَدِ فِي الْخَارِجِ، وَلَكِنَّ السَّتَائِرَ كَانَتْ ثَقِيلَةً جِدًّا فَلَمْ تَسْتَطِعْ تَنْحِيَتَهَا جَانِبًا. عِوَضًا عَنْ ذَلِك، زَحَفَتْ تَحْتَهَا لِتَصِلَ إِلَى النَّافِذَةِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا وَصَلَتْ هُنَاكَ، اكْتَشَفَتْ أَنَّ الزُّجَاجَ عَالٍ جِدًّا. لَمْ تَسْتَطِعْ سِوَى أَنْ تَرْفَعَ رَأْسَهَا فَوْقَ حَافَّةِ النَّافِذَةِ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى الْخَارِجِ، وَلَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَةِ مَا أَرَادَتْ. رَكَضَتْ مِنْ نَافِذَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَوَجَدَتْ نَفْسَ الْمُشْكِلَةِ مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا. فَشَعَرَتْ كَعُصْفُورٍ مَحْبُوسٍ فِي قَفَصٍ.

فَجْأَةً، سَمِعَتْ هايدي شَخْصًا يُنَادِي: «الْفَطُورُ جَاهِزٌ!» تَرَكَتِ النَّافِذَةَ وَانْضَمَّتْ إِلَى كلارا فِي غُرْفَةِ الطَّعَامِ. تَنَاوَلَتْ هايدي طَعَامَهَا بِطَرِيقَةٍ مُمْتَازَةٍ. ثُمَّ عِنْدَمَا لَمْ تَكُنِ السَّيِّدَةُ روتينماير تَنْظُرُ، دَسَّتْ لُفَافَةَ الْخُبْزِ الْأَبْيَضِ فِي جَيْبِ مِئْزَرِهَا بِسُرْعَةٍ. عِنْدَمَا انْتَهَتِ الْوَجْبَةُ، رَكَضَتْ إِلَى الْأَعْلَى لِغُرْفَتِهَا وَوَضَعَتْهَا فِي الْخِزَانَةِ لِتَأْخُذَهَا لِلْجَدَّةِ. فَكَّرَتْ هايدي فِي الْيَوْمِ الَّذِي سَتَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنْ إِعْطَاءِ هَذَا الرَّغِيفِ اللَّذِيذِ لِلْجَدَّةِ. فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ، سَتُحَاوِلُ هايدي أَنْ تَنْسَى الْأَفْكَارَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْجَدَّةِ، لِأَنَّهَا إِذَا لَمْ تَفْعَلْ، فَسَتَجْعَلُهَا حَزِينَةً جِدًّا. بَعْدَ إِلْقَاءِ نَظْرَةٍ أَخِيرَةٍ عَلَى الرَّغِيفِ، أَغْلَقَتْ بَابَ الْخِزَانَةِ وَانْضَمَّتْ إِلَى كلارا فِي غُرْفَةِ الْمَعِيشَةِ.

بِمُجَرَّدِ أَنْ أَصْبَحَتِ الطِّفْلَتَانِ بِمُفْرَدِهِمَا، سَأَلَتْ هايدي كلارا عَنِ النَّوَافِذِ.

– «أُوه، يَجِبُ أَنْ تَفْتَحِي النَّوَافِذَ لِكَيْ تَنْظُرِي لِلْخَارِجِ. وَلَكِنْ يَصْعُبُ فَتْحُهَا. اطْلُبِي مِنْ سيباستيان أَنْ يَفْتَحَهَا لَكِ بَعْدَ دُرُوسِنَا.»

عِنْدَمَا انْتَهَتْ دُرُوسُهُمَا، كَانَ عَلَى كلارا أَنْ تَسْتَرِيحَ فِي فَتْرَةِ مَا بَعْدَ الظَّهِيرَةِ. كَانَ هَذَا وَقْتَ رَاحَةِ السَّيِّدَةِ روتينماير أَيْضًا؛ لِذَا كَانَتْ هايدي حُرَّةً لِتَفْعَلَ مَا تَشَاءُ. وَكَانَ أَوَّلُ مَا فَعَلَتْهُ هايدي هُوَ الْبَحْثُ عَنْ سيباستيان وَجَعْلُهُ يَفْتَحُ لَهَا نَافِذَةً.

صَعِدَتْ هايدي فَوْقَ مِسْنَدِ الْقَدَمَيْنِ. أَخِيرًا كَانَتْ سَتَرَى مَا كَانَتْ تَتُوقُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهَا عِنْدَمَا نَظَرَتْ إِلَى الْخَارِجِ، وَجَدَتْ مَنْظَرًا مُخَيِّبًا لِلْآمَالِ.

قَالَتْ فِي حُزْنٍ: «مَاذَا؟! لَا يُوجَدُ شَيْءٌ فِي الْخَارِجِ سِوَى طُرُقٍ حَجَرِيَّةٍ. مَاذَا سَأَرَى إِذَا ذَهَبْتُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْمَنْزِلِ يَا سيباستيان؟»

قَالَ الرَّجُلُ: «نَفْسَ الشَّيْءِ.»

سَأَلَتْ هايدي: «وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ يُمْكِنُنِي الذَّهَابُ لِكَيْ أَرَى الْوَادِيَ كُلَّهُ؟»

– «يَجِبُ أَنْ تَصْعَدِي إِلَى قِمَّةِ بُرْجٍ عَالٍ، مِثْلِ ذَلِك الْبُرْجِ هُنَاكَ ذِي الْكُرَةِ الذَّهَبِيَّةِ فَوْقَهُ. مِنْ هُنَاكَ يُمْكِنُكِ رُؤْيَةُ كُلِّ شَيْءٍ.»

نَزَلَتْ هايدي مِنْ عَلَى مِسْنَدِ الْقَدَمَيْنِ وَرَكَضَتْ إِلَى الشَّارِعِ بِأَسْرَعِ مَا يُمْكِنُهَا، وَلَكِنَّ الْأُمُورَ لَمْ تَكُنْ بِالسُّهُولَةِ الَّتِي اعْتَقَدَتْهَا. بَدَا الْبُرْجُ قَرِيبًا جِدًّا مِنَ النَّافِذَةِ. وَلَكِنِ الْآنَ لَمْ تَسْتَطِعْ حَتَّى أَنْ تُحَدِّدَ فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ كَانَ. سَارَتْ بِبُطْءٍ عَبْرَ الطُّرُقَاتِ، تَمُرُّ بِجَانِبِ أَشْخَاصٍ يَبْدُونَ جَمِيعًا فِي عَجَلَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى مَكَانٍ مَا. فَجْأَةً رَأَتْ صَبِيًّا يَقِفُ بِالْقُرْبِ مِنْهَا. كَانَ يَحْمِلُ أُرْغُنًا يَدَوِيًّا عَلَى ظَهْرِهِ وَيَحْمِلُ سُلَحْفَاةً صَغِيرَةً فِي يَدِهِ. جَرَتْ هايدي نَحْوَهُ وَقَالَتْ: «أَيْنَ الْبُرْجُ ذُو الْكُرَةِ الذَّهَبِيَّةِ؟»

– «سَآخُذُكِ إِلَى هُنَاكِ نَظِيرَ أَرْبَعَةِ بِنْسَاتٍ.»

وَعَدَتْ هايدي أَنَّهَا سَتُحْضِرُ الْمَالَ مِنْ كلارا لَاحِقًا. بَدَا أَنَّ الصَّبِيَّ يَثِقُ بِهَا وَأَرَاهَا جَمِيعَ أَنْحَاءِ الْبَلْدَةِ. وَأَخِيرًا وَصَلَا إِلَى الْبُرْجِ. قَرَعَا جَرَسَ الِاسْتِدْعَاءِ وَظَهَرَ رَجُلٌ عَجُوزٌ فِي الْمَدْخَلِ. فِي الْبِدَايَةِ ظَنَّ أَنَّ هايدي صَغِيرَةٌ جِدًّا لِلِاهْتِمَامِ بِهَا، وَلَكِنَّ عَيْنَيِ الطِّفْلَةِ الْمُتَوَسِّلَتَيْنِ أَقْنَعَتَاهُ بِأَنْ يَأْخُذَهَا إِلَى أَعْلَى الْبُرْجِ. تَمَسَّكَتْ هايدي بِيَدِ الرَّجُلِ الْعَجُوزِ

وَصَعِدَتِ السَّلَالِمَ الْكَثِيرَةَ. وَعِنْدَمَا وَصَلَا لِلْقِمَّةِ، رَفَعَهَا الرَّجُلُ الْعَجُوزُ لِكَيْ تَسْتَطِيعَ النَّظَرَ إِلَى الْخَارِجِ عَبْرَ النَّافِذَةِ الْمَفْتُوحَةِ.

رَأَتْ هايدي تَحْتَهَا عَدَدًا هَائِلًا مِنَ الْأَسْقُفِ وَالْأَبْرَاجِ وَالْمَداخِنِ. سَحَبَتْ رَأْسَهَا لِلْخَلْفِ وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ: «لَيْسَ هَذَا مَا كُنْتُ أَظُنُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ.»

أَنْزَلَ الرَّجُلُ هايدي لِلْأَرْضِ وَقَادَهَا عَبْرَ الدَّرَجِ الضَّيِّقِ إِلَى أَسْفَلَ. وَبَيْنَمَا كَانَا يَتَّجِهَانِ نَحْوَ غُرْفَةِ الْحَارِسِ، سَمِعَتْ هايدي مُوَاءً عَالِيًا.

تَوَقَّفَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ وَنَظَرَتْ حَوْلَهَا فِي هَذِهِ الْمِسَاحَةِ الصَّغِيرَةِ.

عِنْدَمَا رَأَى الْعَجُوزُ هايدي مُهْتَمَّةً بِهَذَا الشَّكْلِ، أَشَارَ لَهَا نَحْوَ سَلَّةٍ.

ظَلَّتْ تَقُولُ: «أُوه، كَمْ هِيَ لَطِيفَةٌ، يَا لَهَا مِنْ قِطَطٍ جَمِيلَةٍ!»

سَأَلَ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ: «هَلْ تَوَدِّينَ الْحُصُولَ عَلَى وَاحِدَةٍ؟»

– «أَحْتَفِظُ بِهَا؟»

– «نَعَمْ، بِالطَّبْعِ. أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ إِذَا أَحْبَبْتِ. فِي الْحَقِيقَةِ، يُمْكِنُكِ أَخْذُهَا كُلِّهَا إِذَا أَرَدْتِ.»

ابْتَسَمَتْ هايدي وَهِيَ تُفَكِّرُ فِي السَّعَادَةِ الَّتِي سَتَجْلِبُهَا الْقِطَطُ لِكلارا: «هَلْ يُمْكِنُنِي أَخْذُ اثْنَيْنِ الْيَوْمَ وَالْبَاقِي لَاحِقًا؟»

رَدَّ الرَّجُلُ ضَاحِكًا: «بِالطَّبْعِ، بَلْ إِنِّي سَأُحْضِرُهَا لَكِ بِنَفْسِي!»

أَشَارَتْ هايدي إِلَى حَيْثُ تَعِيشُ. ثُمَّ قَضَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ دَقِيقَةً أَوْ أَكْثَرَ فِي اخْتِيَارِ الْقِطَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ سَتَذْهَبَانِ مَعَهَا. وَضَعَتْهُمَا فِي جُيُوبِهَا ثُمَّ رَكَضَتْ نَازِلَةً دَرَجَاتِ السُّلَّمِ الْمُتَبَقِّيَةَ لِتَصِلَ إِلَى الصَّبِيِّ الْمُنْتَظِرِ فِي الشَّارِعِ.

قَالَ الصَّبِيُّ: «أَرْبَعَةَ بِنْسَاتٍ لِأُعِيدَكِ؟»

أَوْمَأَتْ هايدي بِرَأْسِهَا وَتَبِعَتْهُ لِمَنْزِلِهَا. كَانَ سيباستيان يَنْتَظِرُ لَدَى الْبَابِ.

– «أَسْرِعِي! أَسْرِعِي يَا آنِسَتِيَ الصَّغِيرَةَ! اذْهَبِي فَوْرًا إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ. السَّيِّدَةُ روتينماير فِي انْتِظَارِكِ.»

انْطَلَقَتْ هايدي عَبْرَ الْبَابِ وَأَغْلَقَهُ سيباستيان خَلْفَهَا، تَارِكًا الصَّبِيَّ وَاقِفًا عَلَى الدَّرَجِ.

دَلَفَتْ هايدي إِلَى الْغُرْفَةِ وَاسْتَمَعَتْ إِلَى تَعْنِيفِ السَّيِّدَةِ روتينماير. وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ مِنْ تَعْنِيفِهَا، سَأَلَتْ هايدي عَمَّا لَدَيْهَا لِتُدَافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِهَا.

«مِيَاوْ.» هَكَذَا جَاءَتِ الْإِجَابَةُ.

قَفَزَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ وَاقِفَةً فِي غَضَبٍ. «أديلهايد، مَاذَا قُلْتِ؟»

قَالَتْ هايدي: «لَمْ أَقُلْ ...» لَكِنْ قَاطَعَهَا صَوْتُ الْمُوَاءِ، «مِيَاوْ! مِيَاوْ!»

كَانَ سيباستيان يَجِدُ صُعُوبَةً فِي كَتْمِ الضَّحِكِ وَكَادَ يُسْقِطُ الْأَطْبَاقَ. سَارَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير بِهُدُوءٍ إِلَى هايدي لِتَرَى مَا الَّذِي أَصْدَرَ هَذَا الصَّوْتَ.

صَاحَتْ ذُعْرًا: «قِطَطٌ صَغِيرَةٌ! سيباستيان! تينيت! أَخْرِجَا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الصَّغِيرَةَ الْبَغِيضَةَ مِنْ هُنَا! خُذَاهَا بَعِيدًا!» وَبِهَذِهِ الْجُمْلَةِ، اسْتَدَارَتْ وَذَهَبَتْ لِغُرْفَةِ الْمَعِيشَةِ.

قَفَزَتْ هايدي وَاقِفَةً وَرَكَضَتْ إِلَى حَيْثُ جَلَسَتْ كلارا. أَخَذَتِ الْقِطَّتَيْنِ مِنْ جُيُوبِهَا وَوَضَعَتْهُمَا عَلَى حِجْرِ الْفَتَاةِ.

صَرَخَتْ كلارا مَرَحًا وَهِيَ تَضُمُّ الْقِطَّتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ إِلَى صَدْرِهَا: «هايدي، أَيْنَ وَجَدْتِ هَاتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ اللَّطِيفَتَيْنِ؟»

لَكِنَّ هايدي كَانَتْ مَشْغُولَةً فِي مُطَارَدَةِ الْقِطَّتَيْنِ الْمُنْدَفِعَتَيْنِ فَلَمْ تُجِبْ. غَطَّتْ ضَحِكَاتُهَا عَلَى أَوَامِرِ السَّيِّدَةِ روتينماير مِنَ الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ. إِلَّا أَنَّ كلارا سَمِعَتِ الصَّرْخَةَ الْمُسْتَاءَةَ الَّتِي تَعَالَتْ مِنَ الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ وَعَلِمَتْ أَنَّ السَّيِّدَةَ سَتَفْعَلُ مَا بِوُسْعِهَا لِتُخَلِّصَ الْمَنْزِلَ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ.

تَوَسَّلَتْ كلارا: «مِنْ فَضْلِكَ يَا سيباستيان جِدْ مَكَانًا لِتُخَبِّئَهُمَا مِنْ أَجْلِنَا. يَجِبُ أَنْ نَحْتَفِظَ بِهِمَا!» وَتَمَسَّكَتْ بِقِطَّةٍ بَيْضَاءَ صَغِيرَةٍ جَمِيلَةٍ ذَاتِ ذَيْلٍ أَسْوَدِ الطَّرَفِ.

أَجَابَ سيباستيان بِابْتِسَامَةٍ: «سَأَعْمَلُ عَلَى ذَلِك. سَأَضَعُهُمَا فِي مَكَانٍ لَا تَذْهَبُ لَهُ السَّيِّدَةُ عَلَى الْأَرْجَحِ.»

وَهَكَذَا ذَهَبَتْ هايدي وَكلارا إِلَى النَّوْمِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَهُمَا تَعْلَمَانِ أَنَّ الْقِطَطَ بِأَمَانٍ وَدِفْءٍ فِي فِرَاشٍ مُرِيحٍ.

الفصل التاسع

الْمَالُ وَالْقِطَطُ

فِي الْيَوْمِ التَّالِي عَادَ الصَّبِيُّ. قَرَعَ جَرَسَ الْبَابِ مِرَارًا وَتَكْرَارًا حَتَّى أَجَابَ سيباستيان.

سَأَلَ وَهُوَ يَفْتَحُ الْبَابَ بِعُنْفٍ: «مَا مَعْنَى هَذَا؟»

أَجَابَ الصَّبِيُّ: «أُرِيدُ أَنْ أَرَى كلارا.»

سَأَلَ سيباستيان بِخُشُونَةٍ: «مَاذَا تُرِيدُ مِنْهَا؟»

رَدَّ الصَّبِيُّ مُوَضِّحًا: «إِنَّهَا مَدِينَةٌ لِي بِثَمَانِيَةِ بِنْسَاتٍ.»

ضَحِكَ سيباستيان: «أَنْتَ مَجْنُونٌ!»

– «إِنَّهَا مَدِينَةٌ لِي بِأَرْبَعَةِ بِنْسَاتٍ لِدَلِّهَا عَلَى الطَّرِيقِ لِلْبُرْجِ وَأَرْبَعَةِ بِنْسَاتٍ لِدَلِّهَا عَلَى طَرِيقِ الْعَوْدَةِ.»

– «أَنْتَ تُرَدِّدُ الْأَكَاذِيبَ! الْآنِسَةُ الصَّغِيرَةُ لَا تَخْرُجُ أَبَدًا. إِنَّهَا حَتَّى لَا تَسْتَطِيعُ السَّيْرَ! دَعْنَا وَشَأْنَنَا!» وَحَاوَلَ سيباستيان إِغْلَاقَ الْبَابِ.

لَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ إِخَافَةُ الصَّبِيِّ، فَبَقِيَ مَكَانَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ حَازِمٍ: «وَلَكِنِّي رَأَيْتُهَا فِي الشَّارِعِ. لَدَيْهَا شَعْرٌ أَسْوَدُ قَصِيرٌ وَمُجَعَّدٌ، وَعَيْنَانِ سَوْدَاوَانِ وَتَرْتَدِي رِدَاءً بُنِّيًّا. وَلَا تَتَحَدَّثُ بِنَفْسِ طَرِيقَتِنَا.»

– «أَهَا. لَقَدْ وَقَعَتِ الْآنِسَةُ الصَّغِيرَةُ فِي الْمَزِيدِ مِنَ الْمَتَاعِبِ.» هكذا فَكَّرَ سيباستيان، ضَاحِكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِلصَّبِيِّ: «تَعَالَ إِلَى الدَّاخِلِ.»

أَرْشَدَهُ سيباستيان فِي الطَّرِيقِ حَتَّى وَصَلَا إِلَى غُرْفَةِ الْمَعِيشَةِ، فَقَدَّمَ الصَّبِيَّ إِلَى الْفَتَاتَيْنِ وَالْمُعَلِّمِ. أَعْطَاهُمُ الصَّبِيُّ نِصْفَ ابْتِسَامَةٍ، ثُمَّ وَضَعَ سُلَحْفَاةً صَغِيرَةً كَانَ مُمْسِكًا بِهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمَامَهُ. أَثَارَ مَنْظَرُ هَذَا الْكَائِنِ الْغَرِيبِ ضَحِكَ الْفَتَاتَيْنِ.

اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ ثَوَانِيَ قَلِيلَةً حَتَّى ظَهَرَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير عِنْدَ الْبَابِ. «تَوَقَّفَا!» صَاحَتْ مُحَاوِلَةً أَنْ تُسْكِتَ ضَحِكَاتِ الْفَتَاتَيْنِ.

خَفَضَتِ الْفَتَاتَانِ ضَحِكَاتِهِمَا، وَلَكِنَّ كلارا لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْ كَتْمِ صَرَخَاتِ الْبَهْجَةِ. بَقِيَ سيباستيان فِي الْخَارِجِ، يَضْحَكُ بِشِدَّةٍ حَتَّى كَادَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُقُوفِ. كَانَتْ سُلَحْفَاةُ الصَّبِيِّ الْأَلِيفَةُ الَّتِي بَدَا أَنَّهُ يَحْمِلُهَا مَعَهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ، تَزْحَفُ نَحْوَ قَدَمَيِ السَّيِّدَةِ، فَقَفَزَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير فَوْقَ كُرْسِيٍّ وَبَدَأَتْ تَصْرُخُ.

أَمَرَتْ: «خُذُوهُمَا خَارِجًا، الصَّبِيَّ وَالْحَيَوَانَ! خُذُوهُمَا بَعِيدًا فَوْرًا!»

جَذَبَ سيباستيان الصَّبِيَّ بَعِيدًا، مُمْسِكًا بِسُلَحْفَاتِهِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْبَابِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى الرُّوَاقِ، وَضَعَ شَيْئًا فِي يَدِ الصَّبِيِّ. وَقَالَ لَهُ وَهُوَ يُغْلِقُ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ: «هَذَا هُوَ الْمَالُ مِنَ الْآنِسَةِ كلارا. أَنْفِقْهُ بِحِكْمَةٍ!»

بَعْدَ دَقَائِقَ قَاطَعَ سيباستان الدَّرْسَ مُجَدَّدًا. وَدَخَلَ إِلَى الْغُرْفَةِ وَقَالَ إِنَّ شَخْصًا مَا أَحْضَرَ سَلَّةً كَبِيرَةً يَجِبُ أَنْ تُسَلَّمَ إِلَى الْآنِسَةُ كلارا فَوْرًا.

قَالَتْ كلارا بِدَهْشَةٍ: «لِي أَنَا؟ أَحْضِرْهَا لِي مِنْ فَضْلِكَ!»

قَالَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير بِحَزْمٍ: «بَعْدَ دَرْسِكِ.»

– «أُوه، وَلَكِنْ لَنْ أَسْتَطِيعَ التَّرْكِيزَ فِي الدَّرْسِ. سَأَظَلُّ أُحْدِقُ بِالسَّلَّةِ مِثْلَمَا أَفْعَلُ الْآنَ.»

كَانَ غِطَاءُ السَّلَّةِ غَيْرَ مُحْكَمٍ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، خَرَجَتْ مِنَ السَّلَّةِ عِدَّةُ قِطَطٍ صَغِيرَةٍ تَتَعَثَّرُ عَلَى الْأَرْضِ وَتَتَسَابَقُ فِي الْغُرْفَةِ فِي كُلِّ الِاتِّجَاهَاتِ.

هَتَفَتْ كلارا: «أُوه، يَا لَهَا مِنْ كَائِنَاتٍ صَغِيرَةٍ لَطِيفَةٍ! انْظُرُوا كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ! انْظُرِي إِلَى هَذِهِ يَا هايدي. وَانْظُرِي إِلَى هَذِهِ!»

فِي فَرْحَتِهَا، طَارَدَتْ هايدي الْقِطَطَ الصَّغِيرَةَ مِنْ رُكْنٍ إِلَى آخَرَ فِي الْغُرْفَةِ. وَوَقَفَ الْمُعَلِّمُ بِجَانِبِ الطَّاوِلَةِ، لَا يَعْلَمُ مَاذَا يَفْعَلُ. وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير مُسْتَاءَةً بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَنْطِقْ بِبِنْتِ شَفَةٍ. رَاقَبَتْ بَيْنَمَا كَانَتِ الْقِطَطُ تَرْكُضُ حَوْلَ الْغُرْفَةِ وَتَجْعَلُ الْفَتَاتَيْنِ تَضْحَكَانِ بِلَا تَوَقُّفٍ. أَخِيرًا وَجَدَتْ صَوْتَهَا وَبَدَأَتْ تَصْرُخُ مُسْتَدْعِيَةً سيباستيان وَتينيت.

حَضَرَ الاثْنَانِ بِسُرْعَةٍ. وَفِي غُضُونِ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ كَانَا قَدْ أَمْسَكَا الْقِطَطَ وَوَضَعَاهَا فِي السَّلَّةِ مَرَّةً أُخْرَى. وَحَمَلَاهَا بَعِيدًا لِوَضْعِهَا مَعَ الْقِطَطِ الْأُخْرَى. وَظَلَّتِ السَّيِّدَةُ روتينماير وَحْدَهَا مَعَ الْفَتَاتَيْنِ. وبَدَلًا مِنَ الصُّرَاخِ، أَعْطَتِ الْفَتَاتَيْنِ نَظْرَةً ذَاتَ مَعْنًى وَذَهَبَتْ.

بِحُلُولِ نِهَايَةِ فَتْرَةِ الظَّهِيرَةِ كَانَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير قَدْ عَلِمَتْ أَنَّ أَحْدَاثَ الْيَوْمِ الْجَامِحَةَ كَانَتْ بِسَبَبِ هايدي. لَقَدْ أَثَارَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ الْمَتَاعِبَ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِوُصُولِهَا. رُبَّمَا إِذَا تَمَكَّنَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير مِنْ جَعْلِهَا تَشْعُرُ أَنَّهَا غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهَا فَسَتَتَوَسَّلُ لِكَيْ تَرْحَلَ.

– «أديلهايد، أَعْرِفُ عِقَابًا وَاحِدًا يُنَاسِبُ مَا فَعَلْتِهِ! أَنْتِ فَتَاةٌ سَيِّئَةٌ وَأُرِيدُكِ أَنْ تَتَعَلَّمِي أَنَّهُ لَا يُمْكِنُكِ التَّصَرُّفُ كَالْحَيَوَانَاتِ حَوْلَنَا. رُبَّمَا سَتَتَعَلَّمِينَ دَرْسَكِ إِذَا وَضَعْتُكِ فِي قَبْوٍ مُظْلِمٍ مَعَ الْفِئْرَانِ وَالْخَنَافِسِ السَّوْدَاءِ.»

جَعَلَتِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ كلارا تَشْهَقُ: «أُوه، لَا يَا سَيِّدَةُ روتينماير. يَجِبُ أَنْ تَنْتَظِرِي حَتَّى يَأْتِيَ أَبِي. سَيَصِلُ إِلَى الْمَنْزِلِ قَرِيبًا. سَأُخْبِرُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَيُمْكِنُهُ أَنْ يُقَرِّرَ مَاذَا يَحْدُثُ مَعَ هايدي.»

لَمْ تَتَمَكَّنِ السَّيِّدَةُ روتينماير أَنْ تُعَارِضَ رَغْبَةَ الطِّفْلَةِ. «إِذَنْ سَنَنْتَظِرُ وَالِدَكِ يَا آنِسَةُ كلارا. وَلَكِنِّي سَأَتَحَدَّثُ مَعَهُ أَنَا أَيْضًا.»

مَرَّتِ الْأَيَّامُ الْقَلِيلَةُ التَّالِيَةُ دُونَ أَيِّ أَحْدَاثٍ مُهِمَّةٍ. وَغَدَتْ كلارا أَكْثَرَ مَرَحًا مُنْذُ انْتِقَالِ هايدي لِلْعَيْشِ مَعَهَا. لَقَدْ أَضَافَتِ الزَّائِرَةُ الصَّغِيرَةُ رُوحًا مَرِحَةً لِلدُّرُوسِ وَلِلرُّوتِينِ الْيَوْمِيِّ. وَكَانَتْ دَائِمًا تُحَاوِلُ التَّمَلُّصَ مِنْ عَمَلِهَا. كَانَتْ تَخْلِطُ بَيْنَ كُلِّ الْحُرُوفِ وَبَدَتْ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى تَعَلُّمِهَا. حَاوَلَ الْمُعَلِّمُ لَفْتَ نَظَرِهَا إِلَى أَشْكَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَحَاوَلَ حَتَّى أَنْ يَجْعَلَهَا تَرَى هَذَا الْحَرْفَ عَلَى شَكْلِ بُوقٍ صَغِيرٍ أَوْ ذَاكَ عَلَى شَكْلِ مِنْقَارِ طَائِرٍ. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا إِلَّا لِيَزِيدَ حَمَاسَةَ هايدي فَتَقُولَ فَجْأَةً شَيْئًا سَاذَجًا مِثْلَ: «هَذِهِ حَمَامَةٌ! وَهَذِهِ مَاعِزَةٌ!» حَاوَلَ الْمُعَلِّمُ بِكُلِّ الطُّرُقِ أَنْ يَجْعَلَ هايدي تَتَذَكَّرُ الْحُرُوفَ وَلَكِنْ بَدَا أَنَّهُ مَا مِنْ طَرِيقَةٍ تَنْجَحُ مَعَهَا. وَأَخِيرًا قَرَّرَ أَنَّهَا رُبَّمَا تَكُونُ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى تَعَلُّمِ الْحُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَتْ هايدي تَزْدَادُ قَلَقًا. فَقَدْ قَضَتْ أُسْبُوعًا فِي فرانكفورت وَالْآنَ تَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهَا فِي تَخَيُّلِ الْجَبَلِ. قَرِيبًا سَتَتَحَوَّلُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ إِلَى اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ

وَسَتَلْمَعُ الزُّهُورُ الصَّفْرَاءُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ. فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ كَانَتْ هايدي تَشْعُرُ بِحَنِينٍ شَدِيدٍ إِلَى مَنْزِلِهَا حَتَّى إِنَّهَا لَا تَكَادُ تَتَحَمَّلُ الْوَضْعَ. وَأَخِيرًا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ قَرَّرَتْ أَنَّهَا لَنْ تَتَحَمَّلَ الْمَزِيدَ. رَكَضَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا وَجَمَعَتْ كُلَّ الْأَرْغِفَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَفِظُ بِهَا مِنْ أَجْلِ الْجَدَّةِ. وَأَمْضَتْ عِدَّةَ دَقَائِقَ فِي الْبَحْثِ عَنْ قُبَّعَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ أَخِيرًا إِلَى الْأَسْفَلِ مِنْ غَيْرِهَا. عِنْدَمَا وَصَلَتْ إِلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ، قَابَلَتِ السَّيِّدَةَ روتينماير وَهِيَ عَائِدَةٌ مِنْ نُزْهَةٍ عَلَى الْأَقْدَامِ.

– «إِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ بِهَذِهِ الْمَلَابِسِ؟» سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ وَقَدْ عَبَسَتْ عِنْدَ رُؤْيَةِ الشَّالِ الْأَحْمَرِ الرَّثِّ الَّذِي نَسِيَتْ أَنْ تَرْمِيَهُ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً: «أَنْتِ تَعْرِفِينَ أَنَّهُ غَيْرُ مَسْمُوحٍ لَكِ بِمُغَادَرَةِ الْمَنْزِلِ!»

قَالَتْ هايدي بِصَوتٍ خَافِتٍ: «أَنَا ذَاهِبَةٌ إِلَى الْمَنْزِلِ.»

– «ذَاهِبَةٌ إِلَى الْمَنْزِلِ! أَتُرِيدِينَ الذَّهَابَ إِلَى الْمَنْزِلِ؟ لَدَيْكِ هُنَا الْأَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. لِمَاذَا تُرِيدِينَ إِذَنِ الرَّحِيلَ؟ أَيَّتُهَا الطِّفْلَةُ النَّاكِرَةُ لِلْجَمِيلِ! مَا الَّذِي يَدْعُوكِ لِفِعْلِ هَذَا؟»

لَمْ يَسَعْ هايدي إِلَّا أَنْ تَرُدَّ عَلَى السَّيِّدَةِ: «أُرِيدُ الْعَوْدَةَ إِلَى الْمَنْزِلِ لِأَنَّ الْجَدَّةَ بِانْتِظَارِي. وَإِذَا بَقِيتُ أَكْثَرَ، سَتَتَعَرَّضُ جرينفينش لِلضَّرْبِ لِأَنِّي لَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ إِعْطَاءِ بيتر أَيَّ جُبْنٍ. وَلَنْ أَتَمَكَّنَ أَبَدًا مِنْ رُؤْيَةِ الْعُشِّ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ الطَّائِرُ الْكَبِيرُ عَلَى الصُّخُورِ فِي الْأَعْلَى و...»

صَاحَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير: «تَوَقَّفِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ!» ثُمَّ اسْتَدَارَتْ وَصَعِدَتْ عَلَى الدَّرَجِ. وَفِي الطَّرِيقِ صَادَفَتْ سيباستيان.

أَمَرَتْهُ: «أَحْضِرْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَةَ الصَّغِيرَةَ الشَّقِيَّةَ لِلدَّاخِلِ فَوْرًا! إِنَّهَا تَتَفَوَّهُ بِحَمَاقَاتٍ! وَتَخَلَّصْ مِنْ ذَلِكَ الشَّالِ الْأَحْمَرِ!»

سَأَلَ سيباستيان وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى هايدي: «هَلْ وَقَعْتِ فِي الْمَتَاعِبِ مُجَدَّدًا؟»

طَأْطَأَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ رَأْسَهَا، وَبَدَأَتِ الدُّمُوعُ تَتَرَقْرَقُ فِي عَيْنَيْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: «لَا، لَا. لَا تَسْمَحِي لَهَا بِأَنْ تَجْعَلَكِ تَعِيسَةً. أَنْتِ لَمْ تَبْكِي مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْأُسْبُوعِ الَّذِي قَضَيْتِهِ هُنَا. مُعْظَمُ الْفَتَيَاتِ فِي سِنِّكِ كُنَّ سَيَبْكِينَ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ. فَلْنُعِدْ أَشْيَاءَكِ وَنَذْهَبْ لِرُؤْيَةِ الْقِطَطِ الصَّغِيرَةِ.»

أَوْمَأَتْ هايدي بِرَأْسِهَا، وَلَكِنَّ سيباستيان كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ شَيْئًا فِي قَلْبِ الْفَتَاةِ يَنْكَسِرُ. كَانَ ذَلِكَ وَاضِحًا عَلَى الْعَشَاءِ عِنْدَمَا لَمْ تَأْكُلْ أَيَّ طَعَامٍ وَفِي حُزْنِهَا الظَّاهِرِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي عِنْدَمَا بَدَأَتْ دُرُوسَهَا.

لَمْ تَهْتَمَّ السَّيِّدَةُ روتينماير بِتَغَيُّرِ مِزَاجِ الْفَتَاةِ. كَانَتْ قَلِقَةً فَقَطْ مِنْ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ فِي مَلَابِسِهَا الرَّثَّةِ أَوْ أَنْ تَبْدَأَ فِي التَّصَرُّفِ بِجُنُونٍ. لَقَدْ كَانَتْ وَظِيفَتُهَا أَنْ تَهْتَمَّ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

تَحَدَّثَتِ السَّيِّدَةُ مَعَ الْمُعَلِّمِ بِشَأْنِ هايدي، وَأَكَّدَ لَهَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ دَاعٍ لِلْقَلَقِ. كَانَتِ الْفَتَاةُ غَرِيبَةً بَعْضَ الشَّيْءِ وَلَكِنْ مَعَ الْوَقْتِ سَتَكُونُ بِخَيْرٍ. إِنَّهَا فَقَطْ بِحَاجَةٍ لِقَضَاءِ الْمَزِيدِ مِنَ الْوَقْتِ بِجَانِبِ الآنِسَةِ كلارا وَلِلْحُصُولِ عَلَى تَعْلِيمٍ لَائِقٍ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِمَظْهَرِهَا، فَقَدْ كَانَتِ السَّيِّدَةُ روتينماير تَعْلَمُ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُنَظِّفَ الْفَتَاةَ قَلِيلًا. مَعَ وُصُولِ السَّيِّدِ سيسمان إِلَى الْمَنْزِلِ فِي خِلَالِ يَوْمٍ أَوِ اثْنَيْنِ، سَيَتَوَقَّعُ أَنْ يَرَى الزَّائِرَةَ تَتَلَقَّى رِعَايَةً حَسَنَةً. وَالْمَلَابِسُ الْبَالِيَةُ الَّتِي تَرْتَدِيهَا بِبَسَاطَةٍ لَنْ تَنْفَعَ. كَانَتْ هايدي أَصْغَرَ مِنْ كلارا بِمَقَاسٍ أَوِ اثْنَيْنِ فَقَطْ. وَسَتُصْلِحُ السَّيِّدَةُ روتينماير بَعْضَ الْأَثْوَابِ الْفَاخِرَةِ الْخَاصَّةِ بِالْفَتَاةِ الْأَكْبَرِ سِنًّا لِتُنَاسِبَ هايدي. عِنْدَئِذٍ يُمْكِنُ إِلْقَاءُ الْفَسَاتِينِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا.

عِنْدَمَا سَمِعَتْ هايدي هَذِهِ الْخُطَطَ، بَدَأَ الْأَمَلُ فِي رَحِيلِهَا عَمَّا قَرِيبٍ يَتَلَاشَى، فَأَلْقَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى أَرِيكَةِ كلارا وَانْخَرَطَتْ فِي الْبُكَاءِ. بَكَتْ حَتَّى جَفَّتْ دُمُوعُهَا. رُبَّمَا تَتَحَسَّنُ الْأَوْضَاعُ عِنْدَمَا يَصِلُ السَّيِّدُ سيسمان فِي الصَّبَاحِ. رُبَّمَا سَيَتَفَهَّمُ سَبَبَ رَغْبَتِهَا فِي الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَنْزِلِ.

الفصل العاشر

جَدَّةٌ أُخْرَى

سَبَّبَ خَبَرُ عَوْدَةِ السَّيِّدِ سيسمان الْمُنْتَظَرَةِ اضْطِرَابًا فِي الْمَنْزِلِ. كَانَتْ كلارا بِالطَّبْعِ أَكْثَرَ حَمَاسَةً مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُدَّةَ بَقَائِهِ سَتَكُونُ بِضْعَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ، فَقَدْ كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ وَالِدَهَا سَيَقْضِي كُلَّ دَقِيقَةٍ إِضَافِيَّةٍ لَدَيْهِ مَعَهَا. كَانَتْ مُتَشَوِّقَةً لِأَنْ يُقَابِلَ هايدي. وَكَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَسْتَمْتِعُ بِشَخْصِيَّةِ الْفَتَاةِ مِثْلَهَا تَمَامًا.

كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ فَعَلَهُ السَّيِّدُ سيسمان عِنْدَ وُصُولِهِ لِلْمَنْزِلِ هُوَ الْبَحْثُ عَنِ ابْنَتِهِ كلارا، وَكَانَتْ هِيَ وَهايدي فِي الْمَكْتَبِ. سَلَّمَ الْأَبُ عَلَى ابْنَتِهِ بِالْأَحْضَانِ وَالْقُبُلَاتِ. فَقَدْ كَانَ الِاثْنَانِ شَدِيدَيِ الِارْتِبَاطِ بَعْضِهِمَا بِبَعْضٍ، ثُمَّ مَدَّ السَّيِّدُ سيسمان يَدَهُ إِلَى هايدي: «وَهٰذِهِ هِيَ فَتَاتُنَا السِّوِيسْرِيَّةُ الصَّغِيرَةُ. تَعَالَيْ وَصَافِحِينِي!»

أَعْطَتْهُ هايدي يَدَهَا وَابْتَسَمَتْ.

– «وَالْآنَ أَخْبِرِينِي، هَلْ أَنْتِ وَكلارا صَدِيقَتَانِ حَمِيمَتَانِ؟ أَمْ تَغْضَبَانِ وَتَبْكِيَانِ ثُمَّ تَتَصَالَحَانِ وَتَتَشَاجَرَانِ ثَانِيَةً فِي الْيَوْمِ التَّالِي؟»

أَجَابَتْ هايدي: «أُوه، لَا. كلارا طَيِّبَةٌ مَعِي دَائِمًا.»

قَالَتْ كلارا بِسُرْعَةٍ: «وَهايدي لَا تُحَاوِلُ الْمُجَادَلَةَ أَبَدًا.»

قَالَ السَّيِّدُ سيسمان وَهُوَ يَنْهَضُ مِنْ كُرْسِيِّهِ: «أَنَا سَعِيدٌ لِسَمَاعِ ذَلِك. أُرِيدُ غَدَائِيَ الْآنَ، فَأَنَا لَمْ آكُلْ طَوَالَ الْيَوْمِ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمَا بَعْدَهُ مُبَاشَرَةً! ورُبَّمَا أَمْنَحُكُمَا بَعْضَ الْهَدَايَا!»

أُعْجِبَ السَّيِّد سيسمان بهايدي جِدًّا، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي وَصَفَتْ بِهَا السَّيِّدَةُ روتينماير الْأَيَّامَ الْعَدِيدَةَ السَّابِقَةَ. بَلْ إِنَّهُ أَخْبَرَ السَّيِّدَةَ أَنَّهُ يَنْوِي أَنْ يُبْقِيَ هايدي فِي الْجِوَارِ، فَلَدَيْهَا شَخْصِيَّةٌ مُبْهِجَةٌ وَهِيَ صَدِيقَةٌ رَائِعَةٌ لِابْنَتِهِ كلارا. كَمَا طَلَبَ مِنَ السَّيِّدَةِ روتينماير أَنْ تُعَامِلَ الطِّفْلَةَ بِلُطْفٍ وَأَلَّا تُعَاقِبَهَا عَلَى الْأَشْيَاءِ السَّخِيفَةِ الَّتِي تَحْدُثُ وَهِيَ فِي الْجِوَارِ. فَإِذَا وَجَدَتِ السَّيِّدَةُ صُعُوبَةً شَدِيدَةً فِي التَّعَامُلِ مَعَ هايدي، فَسَيُوَظِّفُ السَّيِّدُ سيسمان شَخْصًا آخَرَ لِمُسَاعَدَتِهَا. فِي الْوَاقِعِ، إِنَّ جَدَّةَ كلارا سَتَصِلُ فِي خِلَالِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ لِقَضَاءِ إِجَازَةٍ طَوِيلَةٍ لَطِيفَةٍ. وَكَانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهَا سَتَكُونُ ذَاتَ نَفْعٍ هَائِلٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّعَامُلِ مَعَ الْفَتَاتَيْنِ.

بَقِيَ السَّيِّدُ سيسمان فِي الْمَنْزِلِ لِمُدَّةٍ قَصِيرَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّبَ عَلَيْهِ الذَّهَابُ إِلَى باريس. كَانَتْ كلارا حَزِينَةً، وَلَكِنْ مُتَحَمِّسَةً لِوُصُولِ الْجَدَّةِ. وَتَحَدَّثَتْ عَنْ جَدَّتِهَا كَثِيرًا حَتَّى نَادَتْهَا هايدي سَرِيعًا بِجَدَّتِي. وَقَدْ رَسَمَ هَذَا نَظْرَةً غَاضِبَةً عَلَى وَجْهِ السَّيِّدَةِ روتينماير.

– «يَجِبُ أَلَّا تُنَادِيهَا بِجَدَّتِي، هَلْ تَسْمَعِينَنِي؟ يَجِبُ أَنْ تُنَادِيهَا دَائِمًا بِسَيِّدَتِي.»

تَعَوَّدَتْ هايدي عَلَى نَظَرَاتِ السَّيِّدَةِ الْبَغِيضَةِ حَتَّى إِنَّهَا أَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا فَقَطْ وَمَشَتْ. لَمْ يَعُدْ تَوْبِيخُ السَّيِّدَةِ روتينماير يُزْعِجُهَا.

بِحُلُولِ صَبَاحِ يَوْمِ وُصُولِ الْجَدَّةِ، كَانَتْ هايدي مُتَحَمِّسَةً لِوُصُولِهَا مِثْلُهَا مِثْلُ كلارا. وَصَرَخَتِ الْفَتَاتَانِ وَضَحِكَتَا عِنْدَمَا وَصَلَتِ الْعَرَبَةُ. دَفَعَ سيباستيان مَقْعَدَ كلارا الْمُتَحَرِّكَ إِلَى الْخَارِجِ لِتُقَابِلَ الْجَدَّةَ. وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، انْتَظَرَتْ هايدي حَتَّى تُسْتَدْعَى لِلنُّزُولِ مِنْ غُرْفَتِهَا. لَمْ تُضْطَرَّ لِلِانْتِظَارِ طَوِيلًا إِذْ سُرْعَانَ مَا أَطَلَّتْ تينيت بِرَأْسِهَا وَأَخْبَرَتْهَا أَنْ تَنْزِلَ إِلَى غُرْفَةِ الْمَكْتَبِ.

أَثْنَاءَ دُخُولِهَا إِلَى الْغُرْفَةِ، سَمِعَتْ هايدي صَوْتًا طَيِّبًا يَقُولُ: «هَا قَدْ جَاءَتِ الطِّفْلَةُ! تَعَالَيْ إِلَى هُنَا وَدَعِينِي أَنْظُرْ لَكِ!»

سَارَتْ هايدي إِلَى السَّيِّدَةِ وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ عَذْبٍ: «مَسَاءُ الْخَيْرِ يَا سَيِّدَتِي السَّيِّدَةُ.»

قَالَتِ الْجَدَّةُ وَهِيَ تَضْحَكُ: «حَسَنًا! هَلْ هَذِهِ هِيَ طَرِيقَةُ كَلَامِهِمْ فِي الْجَبَلِ؟»

أَجَابَتْ هايدي: «لَا، لَقَدِ اعْتَقَدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ اسْمُكِ.»

– «لَا بَأْسَ يَا صَغِيرَتِي اللَّطِيفَةَ. عِنْدَمَا أَكُونُ مَعَ الْأَطْفَالِ، أَنَا دَائِمًا «جَدَّتِي». لَنْ تَنْسَيْ هَذَا الِاسْمَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»